بالصدور ، وتمتزج انفاس الحور بأنفاس العطور ، ويقف رمضان الأصيل من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور

وهكذا يجد العالم ونحن نلعب ! كأنما كتب علينا أن نأخذ الحياة من جانبها الفضولي العابث فنتأثر بها ولا نؤثر فيها ! وكأنما قضى الله أن نعيش صواليك على تقاليد الأمم دون أن تميزنا خصيصة من قومية ولا شعيرة من عقيدة ! وكأنما عاقت شعائر الثمود الفاسية وعقائد التوراة الصلبة أشقات اليهود من المغامرة والنبوغ والتقدم وتكوين دولة ما زلنا نقول إنها مزعومة ، ولكنها أخذت تهدد بقوتها سلامة العرب ، وتتحدى بأطماعها سيادة الشرق !

ذلكم أيها السادة موجز مما يقال في استقبال رمضان ، وجدعوه ولا ريب أقل مما تحسونه في أنفسكم من الإجلال والاكبار والحب لهذا الشهر العظيم الكريم ؛ ولكنها على كل حال تحية خالصة قالها مؤمن وسمعها مؤمنون . ولا يدري إلا الله ماذا تدخر مدنية المال ومادية العلم لهذه الروحية التي تتجلى في الصوم ، ولهذه النيرية التي تتمثل في الصائم .

وق الله رمضانا الكريم شر العلم الجاهل والدين الكاذب والتقليد الأعمى والتمدن المشوه ! وجدد الله عليكم به الأعوام المقبلة ياسادتي وأنتم ناعمون في ظلال الأمن ممتعون بنعمة العافية

أحمد حسن الزيات

٢ — على هامش السياسة الدولية

للأستاذ عمر حليق

حددت هيئة اليونسكو موضوع البحث في مسألة الخلق القومي وعلاقته بتوتر العلاقات الدولية على أساس فحواه أن « هناك أوجه تباين جوهري في المقومات الخلقية والعاطفية في الثقافات المختلفة ، الأمر الذي لا يزيله مجرد تنسيق التعامل الاقتصادي والتعاهد والتحالف السياسي » . فزوال هذا التباين لا يتم إلا بإعادة النظر في كثير من العوامل التربوية والثقافية التي تعيش عليها الشعوب ، وتوجيهها بحيث تتلاقى على صعيد واحد مع العوامل التي تعيش عليها الشعوب الأخرى ، وبحيث يصبح لدى العالم بأسره قاسم مشترك أعظم متين الأصول صادق النية صلب متماسك (لأن جذوره في صميم التكوين النفساني لبني آدم) وهو لذلك قادر على صهر هذه الانفعالات العاطفية التي تثور في نفس شعب ما في حالة من حالات القضية القومية ضد شعب أو شعوب اختلف معها في بعض أوجه الحياة السياسية أو الاقتصادية

وأول ما يلاحظ المتابع للدراسات التي عنيت بالخلق القومي وتباينه بين الشعوب أن كثيرا من أهل الخبرة يقولون بأن من الممكن التخفيف — من حدة هذا التباين بين الشعوب التي يختلف خلقها القومي عن أخلاق الشعوب الأخرى — من الممكن التخفيف من حدة هذا التباين عن طريق برنامج واسع ينفذ على مستوى عالمي ويستهدف تعريف شعوب العالم تعريفا علميا صادقا على طبائع الشعوب الأخرى ؛ وعلى المؤثرات والعوامل المحلية البحتة التي تعيش عليها تلك الشعوب . وهذه الوسيلة كما ترى تستند إلى مبدإ أولي في علم النفس

« والتعريف » وسيلة تختلف اختلافا أساسيا عن « الدعاية » أو « البروباجندة »

فالأولى — تؤمن بأن المرء عدو لما يجهل ، فإذا استطاع التعرف على حقيقة ما يجهله إزاء عداوة حادة لا لذلك العدو « الزعوم » وإنما للجهل الذي كان سببا للعداوة

أما الثانية « البروبوغاندة » فهمها الترويج لفكرة معينة كجزء من سياسة مرسومة هدفها إزالة غشاوة الجهل الذي يعمى شعبا ما عن حقيقة مقاصد شعب آخر . ولكن إزالة هذه الغشاوة بواسطة البروباغاندة تكون في أغلب الحالات بطرح غشاوة أخرى على أعين الناس لتعميهم عن حقائق . ومقاصد تهم « البروباغاندة » بطمس معالمها تعمدا واقتدارا

وتعريف الشعب بالمقومات الخلقية والثقافية الحقيقية للشعوب التي تشاركه هذه المعمورة هدف لا يتم إلا عن طريق التبادل الثقافي الواسع النطاق ؛ بحيث لا يقتصر نفوذه على الخاصة ؛ وإنما

يشمل المجالس العامة . كذلك شرط أن يأتى عن يد هيئات ليس لها طابع « قوى » ولا توجه مراميها وأهدافها أوساط ذوات مصالح سافرة أو مستترة

وتطمح مثلا مؤسسة اليونسكو أن تكون النواة لمثل هذه الهيئات « العالمية » التى تستطيع تعريف الناس فى مختلف الأمصار بالثقافات والمقومات الخلقية لمختلف الشعوب فى نزاهة مقصد وتجرد من « البروباغاندة » وما إليها من أوجه الاتصال المغرض

وهنا يتساءل المرء عن اختلاف اللغات وما يخلقه من صعوبات جمة فى سبيل التعرف الجدى على ثقافات الشعوب الأخرى . فلقد باءت بفشل ذريع محاولات البعض لجعل « الاسبرانتو » لغة عالمية

فهناك من أهل الخبرة فى شؤون المواصلات الفكرية من يؤكد بأن اللغة ليست هى العائق الجوهرى الوحيد

فهناك مثلا العادات والسلوك التقليدى والتعبيرات المتباينة التى تعبر بها بعض الشعوب عن انفعالاتها الخاصة ، والتى توارثتها جيلا بعد جيل ، وأصبحت ملازمة لها ملازمة الطبيعة التى توفر لها الغذاء والمأوى فطابع الناس مزيج من الوراثة والبيئة

فالعادة فى اليابان أو الصين مثلا أن يبتسم المرء إذا أصابته ملمة أو أهانه شخص . فالابتسام فى مثل هذه الحالة يفسر على أنه إشارة مهذبة من الشخص الذى أصابه الملمة أو لحقت به الإهانة ، وهذه الإشارة دليل على أنه لا يود أن يزعج الناس بمصائبه وانفعالاته الشخصية الخاصة

فإذا كان ابتسام الصينى أو اليابانى يفسر على هذا النحو فإن كثيرا من سوء الظن والالتباس العار يحدث فيما لو وجد أمريكى أو أوربى نفسه أمام يابانى أو صينى لحقت به مصيبة أو أصابته إهانة فظل يبتسم ، فأكبر الظن بالأمريكى أو الأوروبى سيقدر فى نفسه بأن اليابانى أو الصينى يزدرى به فى سخرية قاتلة (فى حالة قبوله الإهانة بالابتسام) أو أنه لا يتأثر بالانفعالات الإنسانية المؤلمة (فى حالة مواجهته المصائب والملمات باسما)

فإذا نقلت هذا الوضع إلى أعلى مراحل الاتصال فى مجال السياسة الدولية بين أمريكا والصين أو اليابان مثلا فإن رد الفعل سيكون ولا شك ذو عواقب وخيمة على تيار العلاقات بين البلدين . وأكبر الظن كذلك بأن مثل هذه الوضعية قد تؤثر تأثيرا سلبيا سيئا على ما يطمح إليه المتفاوضون من تنسيق العلاقات الاقتصادية أو السياسية بين البلدين

وحين يتوفر لأكثرية الشعب الأمريكى مثلا معرفة حقيقة « الابتسام » أو سواه من التقاليد والعادات عن الصين ؛ يسهل على كلا الشعبين أن يتفاهما ويسويا مصالحهما فى جو أكثر ملاءمة وأدعى إلى تبادل حسن الظن والوداد

ومن منا نحن العرب من لا ينفعل حين يقرأ أو يسمع ما يفسر به بعض الغربيين انفعالاتنا وتقاليدنا وعاداتنا وسلوكنا تفسيرا خاطئا وهو لا يستند إلى معرفة حقة بمغازى تلك العادات والتقاليد؛ حتى لو كان التفسير مدفوعا بروح النزاهة ونبل القصد ؟ الواقع أنك تستطيع أن تفسر كثيرا من أوجه التوتر فى علاقاتنا مع الدول الغربية بسوء الفهم الذى يصدر عن صناع السياسة الغربيين فى معرض تناولهم لقضايا العرب ومشاكلهم ومصالحهم فى شتى أوجه السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية كذلك

ويقترح المعنيون بهذه الناحية من العلاقات الإنسانية بأن من أفضل الوسائل للتغلب على هذا الجهل بالعادات والتقاليد هو أن تقوم جماعة من أهل الاختصاص فى علوم الحياة (الأنتروبولوجيا) وعلم النفس الاجتماعى والتاريخ واللغات وغيرها بدراسة ثقافة معينة — ولنفرض ثقافة الهند — وأن ينفقوا فى هذه الدراسة سنوات فى صميم القطر الذى يدرسون ثقافته ، على أن يكون هؤلاء العلماء من جنسيات مختلفة يساعدهم عدد من العلماء وأهل الدراية من الهنود أنفسهم

فلاحظ أن الأجنبى أكثر ملاحظة للتعبيرات الخاصة والتقاليد والعادات التى تمتاز بها الشعوب . على أن الباحث الأجنبى لا يستطيع استيعاب مغزى تلك العادات والتقاليد دون الاستعانة بأهل الدراية من الذين يمثلون تلك

التقاليد ويسيرون على تلك العادات ، عندئذ يتحقق أكبر قسط من الفهم لأوجه الثقافة جميعها

وحين تعم مثل هذه الدراسات على الشعوب الأخرى بصورة واسعة وعلى الأخص بين الدبلوماسيين والصحيين والتجار والزوار وغيرهم من الأجانب الذين تدفعهم الظروف للاتصال المباشر بالشعب الذى درست ثقافته دراسة علمية مسهبة — حين تعم مثل هذه الدراسات يسهل الاتصال الشخصى ويسهل كذلك تفهم ما يصدر عن أهل تلك الثقافة من إشارات وتعبيرات لا تفسرها الأجانب من أصحاب المصالح تفسيرا خاطئا قد يخلق — فى المجال السياسى مثلا — مشاكل لها ذيولها على صميم العلاقات الجوهرية بين البلدين

والواقع أن وزارات الخارجية فى كثير من الدول الكبرى تقوم الآن بالإنفاق فى سخاء على مثل هذه البحوث لتوفر لمبعوثيها الدبلوماسيين ورجال السياسة والحرب مثل هذه الدراسات النافعة التى تسهل لها مهمة اتصالها مع ممثلى الشعوب الأخرى ؛ سواء فى المجال الرسمى أو شؤون الدعاية أو التبادل التجارى

فقبل خمس سنوات مثلا كلفت وزارة الخارجية والحربية فى واشنطون الدكتورة روث بنديكت أستاذة علم الأنتروبولوجيا فى جامعة كولومبيا بنيويورك بدراسة الثقافة اليابانية على أساس من علم الأنتروبولوجيا لترى ما إذا كان من المناسب لمصلحة الاستقرار السياسى والعسكرى فى اليابان — من وجهة النظر الأمريكية طبعا — أن يظل الميكادو عاهلا لليابان أم أن إبعاده عن العرش هو خير أو أبقى ، فأوصت الدكتورة بنديكت بوجوب بقاء الميكادو وبوجوب القيام بإجراءات عديدة كلها تستند إلى الدراسة الاجتماعية . وقد نفذ الجنرال مك آرثر حاكم اليابان العسكرى آنئذ جميع تلك التوصيات فحاز نجاحا حفظ للمصلحة الأمريكية فى اليابان معظم نواحيها الهامة

وعلى سبيل المثال أيضا فى أهمية هذه الدراسات الأنتروبولوجية فى خدمة سياسات الدول ؛ ما حاولت حكومة إسرائيل القيام به منذ بضعة أشهر حين وضعت تحت تصرف أحد كبار أساتذة علم النفس الاجتماعى (وهو يهودى أمريكى) مبلغا كافيا من المال لتأليف بعثة من الباحثين من اليهود الذين يحملون جنسية أمريكية ومن بعض الأتراك لزيارة شتى بلدان الشرق العربى لدراسة عادات أهله وتقاليدهم دراسة مباشرة لمعرفة مدى العوامل النفسانية التى تؤثر فى مشاعرهم . وكان هدف تلك البعثة مراقبة الطريقة التى يربى فيها العرب صغارهم ، والوسيلة التى يظهرون بها انفعالاتهم الخاصة إزاء الحوادث المرة أو المحزنة ، مع دراسة أمثالهم العامية والطريقة التى يأتون بها ويدفنون بها موتاهم وغير ذلك من أوجه المعيشة التى يمتثل لها الكثرة من سكان الشرق العربى

وكان على أعضاء هذه البعثة اليهودية أن ينفرد كل منهم بدراسة وجه من أوجه هذا النشاط الذى أشرنا إليه ، ويضم فيه تقريرا خاصا فى أسلوب ومنهج علمى معين ، ثم تجمع هذه التقارير ويشرف على صياغتها العالم الكبير الآنف الذكر ليستخلص منها زبدة تكون بمثابة دليل لصناع السياسة اليهودية (إسرائيل) يستطيعون بواسطته توجيه سياستهم نحو العرب سواء فى شؤون الحرب ، أو فى مسألة الإذاعة العربية فى راديو إسرائيل ، أو فى أعمال الجاسوسية داخل البلاد العربية ، أو فى أوجه سياسة اقتصادية أخرى

ومن حسن الحظ أن حكومة عربية بواسطة سفارتها بواشنطون اكتشفت هذه المؤامرة اليهودية فى حينها فأوعزت إلى بقية الحكومات العربية عن طريق الجامعة العربية بوجوب منع هذه البعثة اليهودية من الدخول إلى البلدان العربية . وكان ذلك بعد أن كانت حكومة لبنان قد سمحت عن حسن نيه لبعض أفراد هذه البعثة بالدخول إلى أراضيها

هذه بعض ألوان النشاط الذى حاول بعض المعنيين بالناحية النفسانية فى العلاقات الدولية القيام به فى مجال التعرف على قضية الخلق القومى وتباينه ووسائل التغلب على ما يخلقه من عقبات فى حقل التعاون الدولى

نيويورك — البحث صلة — عمر عليوى